خيبة الامال

في

الحبيب الغالي

حدثنا ابن عربان قال:

«وفي جلسة أخرى
سمعت أخانا أبا العيال.. صاحب نحس الاستثمار في الديار..
يعود للحديث إلى صاحبه أبي الهول..
مذكراً إياه بما حدث في ذلك الحين فيقول:

«استطعت، مستعيناً بقدرة القادر.. إخراج ما بقي من الفلسين بعد استثمار في الوطن خاب فيه الرجاء.. وتحملت فيه من العناء كل العناء..

استعدت ما بقي من الفلوس، وهو أقل من النصف بعدة فلوس، بعد أن اقتنعت من الغنيمة بالإياب.. قبل أن يستفحل الداء، داء التضخم اللعين، آفة العصر وسر البلاء.. فيقضي على تلك البقية الباقية مما كدحت في ادخاره ونويت استثماره..

لقد اخترت أن أستثمر في الأوطان..
وهو اختيار حق يفكر فيه كل إنسان..

فالوطن حبيب وغال.. منه الأصل وإليه المآل..

ولكن ماذا يقال.. وكيف يقال..؟؟

يا لخيبة الأمل في كل غال:. فهي أقسى على النفس من كل قسوة.. وأصعب على الروح من كل صعب..

ما بال هذه الأوطان تزداد ضيقاً وعسراً.. تُهجِّر الرجال والأموال.. وتتدنى فيها قيمة الفلوس حتى أعشار الفلوس..

ما بال هذه الأوطان تحطم الآمال وتُخلِّف الخيبة في كل النفوس..؟؟».

قال ابن عربان:

«وهُنا، ومع اشتداد اليأس بأبي العيال تدخل أبو الهول في الحديث مقاطعاً

ومطمئناً ليقول:

«عوضك على الله يا صاحبي فيما أصابك، فقد أصاب سواك ما أصابك..

هوّن عليك.. فقد استفتيت لك كل خبير، وأحصيت لك كل ما قيل في أحدث ما توصل إليه فن البورصات فأبشر بالعوض عما فات باستثمار جزيل الربح.. وافر الضمان.. أكيد الثبات..».

وأردف أبو الهول يقول:

«ولكنك تتساءل عما أصاب بعض أوطاننا من سوء حال،
وندرة في المال، وهروب للرجال..
وتدهور في الفلوس.. وخيبة في النفوس..
وهذا والله سؤال يفتق الجروح.. وينفث القروح..!!

الحديث عنه يطول ففيه ألف قول وقول...!

إنها حالُنا..
حال من تخلف من الناس فأضحى كالقصعة الشهية أو كالمنسف العامر الذي تنهش منه الصفوة المتقدمة من الأمم من كل جانب.. ويقضم منه كل عابر..
فتزداد الصفوة تخمة ويسراً.. ويزداد المتخلفون جوعاً وعسراً..

إلا أننا ـ فوق ما يصيب كل المتخلفين من أمثالنا ـ نمتاز بتخلف خاص وفريد..!!
أدمناه إدمانا.. وأتقنا فنونه إتقانا..
حتى غدونا بهذا الإدمان.. وذاك الإتقان.. مضرب الأمثال وفرجة الأجيال..!!

فنحن أوطان تاهت في اشتراكيات لا إشتراكية فيها وضاعت في انفتاح ساحت فيه المعالم حتى غدا سبيلاً لكل عابر ومرتعاً لكل مغامر..!!

أوطان تدخل إليها الثروات من أضيق الأبواب حيناً.. ومن أوسع الأبواب

حيانا..
الكنها تُظَهَّرُ لبلاد بعيدة كما تُظَهَّرُ الشيكات..
أوطان أغرقت نفسها في فتن وقلاقل.. نزاعات ومشاكل..

ثورات لا ندري على من تثور.. وانقلابات تنقلب على نفسها، وحروب لا نفهم لِمَ وعلى من تدور..!!
وحدات واتحادات لا تقوم إلا لتنفصل أو تنفصم وتختصم...!!

أوطان تعجز عن الإختراع، لكنها تخترع مفاهيم جديدة للأمن والمخابرات.. تصمم لها الدهاليز والأقبية.. ووسائل التعذيب والملفات..

أوطان تعجز عن إنتاج الغذاء والكساء.. ولكنها تنتج «الميليشيات» التي تبحث عن سبب إنتاجها وعن معارك تقتتل فيها..
فإن لم تجد من تقاتله، انشطرت كانشطار خلايا الأورام الخبيثة وأمعنت في بعضها وفي من حولها قتلاً وتنكيلاً وتشريداً..!!

أوطان غدت طواحين سلاح وذخائر.. تطحن الثروات طحناً، وتذروها هباء لا طائل منه ولا حائل..
وبين هذا وذاك وذاك.. وفي ظل المكابدة والعناء، تطل على هذه الأوطان وفرة سخية حائرة، تدعم فلا ينفع الدعم.. وتعين فيضيع العون..

وتحاول الاستثمار أملاً في نماء متبادل ورخاء عادل وشامل..

تهادن الاشتراكيات.. وتساير الإنفتاحات.. تستنكر الحروب، وتتجنب الفتن والقلاقل..

تحذر من الثورات.. وتبتعد عن الإنقلابات.. وتستجيب لمتطلبات أنظمة الأمن التي لا أمن فيها..

لكنها ـ رغم كل ذلك ـ لا تفلح في إصلاح الحال، ولا تنجُ من شرائع الإخراج والإدخال.. ولا تخلص من الإبتزاز والاحتيال.. ولا من الغوص في مستنقع

المعادلات الصعبة للعملات الصعبة..

أو من الضياع في متاهة الدهاليز الملتوية الضيقة التي لا تجتازها العملات والمعاملات إلا بأداء ما يلزم من أتاوات وعمولات، تحت سمع وبصر أعلى الهيئات.. وفي ظل رعاية أعتى نظم تشجيع وضمان الاستثمار..

هيئات ونظم مغلفة باتفاقيات ورقية هشة.. خاضعة لإشراف ورقابة منظمات عاجية رثة.. هي في وادٍ وأوضاع الأوطان في واد..!

وفي ظل هذا الواقع الكؤود.. تمتد أيادٍ ناعمة معسولة الوعود.. تحتضن الوفرة الحائرة وتسحبها إلى أبعد البعيد..
إلى حيث مرابع استثمار تضيع فيه الفلوس.. «عيني عينك وعلى المكشوف».
ولكنها مرابع استثمار عذب رقيق، كعذوبة الألحان والأغاني.. ورقة عيون الغواني..

استثمار فيه زينات وحدائق.. مؤتمرات وفنادق.. مخامل ونمارق.. وكلام عذب.. ووجوه باشة هاشة..

وموائد خضراء تدعى الأسواق المالية.. وشاشات عقود آجلة وآنية.. تنقلب فيها الثروات إلى صكوك وأوراق.. لا تغني ولا تسمن من جوع..

وحرية مزعومة للدخول والإدخال، والخروج والإخراج تحصد الأموال حصدا..

ومرونة منشارية للصعود والهبوط في الأثمان والفوائد تأكل الثروات أكلاً..

وتخسر الوفرة الحائرة..!!
ولكنك ـ إن شئت الحقيقة والواقع لا الخيال أو المثال:.
فخيرت خاسراً بين أن يخسر مكابداً.. أو أن يخسر مرتاحاً..
لاختار الخسارة دون عناء..
فهذا منطق المصيب واختيار الأريب..!!

وهكذا كان..!!

ولا ندري هل اختارت الأوطان سوء الحال ليهرب المال..؟؟
أم أن سوء الحال كان قصد ومطلب الصفوة المتقدمة في هذا المجال.. لتستأثر بالمال..؟؟
فأحكمت التخطيط واستغلت الغفلة والجهالة حتى آل الأمر إلى ما آل..؟؟
العلم عند الله يا أبا العيال...».

وأردف أبو الهول يقول:

«تلك هي الحال يا صاح
وقد ظلمتك بحسن قصد حين نصحتك بالاستثمار في الأوطان..
دفعني لذلك ولاء لا بد منه مهما ساء الحال.. وقصد لا مهرب منه أياً كان المآل..

ولكن لا عليك..
فقد قضينا حق الأوطان علينا.. وعلينا الآن أن نبحث عن العوض فيما أديناه حقاً للأوطان..
وقد خبرت لك مجالاً ثميناً لاستثمار ثمين.. في معدن مضمون..
نبلغ فيه المراد ونحقق الأرب..
وذلك في معدن الفضة والأفضل منه عقود الذهب».

* * *